مثل ارضنا في السماء

لا ينتظر القارئ لمقالتي اني اوجه منظاري الى ارجاء السماء القاصية فاجد له بعوالمه ارضاً مثل ارضنا بين الجاميع النجمية السابحة فيها فان المنظار ساعده قصير لا يرقى الى اعالي هذا الفضاء البعيد الارجاء لارى ما انا ناشده . ولكني اتحرى مثلها بين العوالم النجمية المتبعثرة في ابعاده المتوغلة في عدم التناهي بعين العقل لم بعين العقل وحدها غير مستعين بآلة من آلات البصر المقربة فاقول :

لا يشك الناظر الى الاشياء في هذا الكون الواسع انها متعددة ولكن يشك في بداءة الامر انها متناهية او غير متناهية . اما القائلون بحدوث العالم فرأيهم انها متناهية واما القائلون بقدمه فلا يرون لها نهاية . ولقد ايدت الدلائل ان هذا الفضاء غير متناهي الارجاء وان عدد الاجرام المتحركة في ابعاده مثله غير متناهٍ

ولكن هنالك امر دُرْبال لم تكشف حقيقته ولم يعطَ حقه من البحث مع ان سعادتنا في المستقبل وعدمها مبنيتان عليه كما سيأتي . هو هل اشكال هذه الاجرام الغير المتناهية غير متناهية مثل عدد الاجرام ام هي متناهية العدد

قال المختبرون للاشياء المتناهية ان ليس في هذا الكون شيئان متماثلان كل التماثل وتوهم هذا صحيح بالنسبة لما اختبروه واما بالنسبة الى ما لم يختبروه مما لا يتناهى فهو محل ريب

لا يجهل الخبير ان كل جرم من الاجرام انما يتألف من جواهر متناهية العدد مهما عظم ذلك الجرم او بلغت اجزاؤه اصغر حد من الصغر

واذا ثبت ان كل جرم يتألف من كيات من الاجزاء متناهية جرّ ذلك ان اشكال ذلك الجرم وصوره ايضاً متناهية فان صور الجرم انما تحصل من تبدل اوضاع اجزائه واذا كانت الاجزاء متناهية فاوضاعها كذلك متناهية وهو النتيجة التي نحاول ان نثبتها من ان الجرم الواحد تكون اشكاله التي يتألف عليها متناهية

لو كانت الاجرام متألفة من اجزاء متساوية بمعنى ان عدد اجزاء كل جرم مساوٍ لعدد اجزاء الجرم الآخر لكانت صور كل جرم متناهية ومماثلة لصور الجرم الآخر تماماً اي لكانت كل صورة من صور الجرم الواحد مماثلة لصورة من صور الجرم الآخر لا محالة . ولكن الواقع غير ذلك فان اجزاء الاجرام غير متساوية ولذلك لا ينتظر ان يكون لكل جرم صورة مماثل صورة في الجرم الآخر

قلنا ان كل جرم انما يتألف من اجزاء متناهية فنعبر عن اقلها اجزاء بالحرف (ا) وعن اكثرها بالحرف (ي) فتكون سائر الحروف عبارة عن الاقدار اوسطى وعلى هذا فالاقدار متناهية في عدد الحروف الهجائية حسب مثالنا ولا يمكن ان تكون غير متناهية لان ذلك يستدعي امكان زيادة الجرم الواحد الى ما لا يتناهى من الاجزاء وليس الامر كذلك . فاذا قسمنا عدد الاجرام غير المتناهي على عدد الاقدار المتناهي اصاب كل قدر منها عدد غير متناهٍ وهو يثبت ان عدد كل قدر من الاقدار المتناهية غير متناهٍ . واذا كان كل قدر غير متناهي العدد كانت الاجرام المتماثلة من حيث عدد الاجزاء غير متناهية العدد اي ان القدر (ا) عدده غير متناهٍ والقدر (ب) غير متناهٍ والقدر (ت) غير متناهٍ الى (ي) وهو آخر الاقدار عظماً

والنتيجة من كل ما تقدم ان في السماء الغير المتناهية اجراماً غير متناهية وان هذه الاجرام تنقسم على اقدار متناهية عدد كل قدر منها غير متناهٍ . ولنمسك قدراً واحداً منها فلا شك ان لكل جرم من اجرام هذا القدر الغير المتناهي العدد صورة تماثل اختها في الجرم منهُ ولما كان عدد اجرام هذا القدر غير متناهٍ فعدد الاجرام المتماثلة فيه ايضاً غير متناهٍ

ويتضح من هذه النتيجة ان اجرام السماء متماثلة الصور كل التماثل لا بمعنى ان صور كل الاجرام متماثلة بل بمعنى ان كل صورة تماثل لصور عدد غير متناهٍ منها بحيث اذا جمعنا كلا من المتماثلات الى جهة حصلنا من مجموعها على مجاميع متباينة كل مجموع منها عددهُ غير متناهٍ الا انهُ متماثل

وعلى هذا فالارض التي نقطنها ليست من حيث صورتها الحاضرة واحدة لا مثل لها في هذه السماء الغير المتناهية بل هي يا فيها من جماد ونبات وحيوان متعددة الى ما لا يتناهى وتعددها انما يكون بتعدد النظام الشمسي وتعدد العالم النجمي الى ما لا يتناهى

ولا يتوهمن القارئ اني اتحرى مثل ارضنا بين السيارات التابعة لشمسنا ولا بين اجرام المجرة التي هي العالم النجمي لنظامنا بل اني اتحرى مثلها (وكأني وفقت) في عالم نجمي مثل عالمنا النجمي تماماً

ولما كان انفضاء غير متناهٍ فالعوالم النجمية فيه غير متناهية يحتوي كل منها على نظام شمسي مثل نظامنا تماماً وكل نظام فيه شمس مثل شمسنا تطوف حولها ارض مثل ارضنا في كل شيء وفي كل ارض انسان مثلي ومثلك يمرح عليها ويعيش ثم يموت

ولما كانت العوالم النجمية لا تنشأ كلها في هذا الفضاء الشاسع الاتساع في وقت واحد كان

زمان نشوئها متفاوتاً ومتلاحقاً فما الذي نشأ ففيهِ نظام مثل نظامنا ويحتوي على ارض مثل ارضنا واما الذي لم ينشأ بعد فسينشأ ويكون فيهِ مثل نظامنا ومثل ارضنا وعدد كل من القسمين غير متناهٍ وعلى هذا فان قسماً من امثال ارضنا موجود في السماء اليوم وقد بلغ ما بلغتهُ الارض من العمر وقسماً قد هرم وشاخ وقسماً لم يتعدَّ بعد طور شبابهِ وقسماً لم يوجد الآن ولكنهُ سيوجد او سوف يوجد وكل الاقسام لا نهاية لعددهِ . فالانسان الذي يموت على الارض يموت على قسم من امثالها في الوقت نفسهِ ويولد على قسم آخر من جديد

ولقائل ان يقول ماذا يفيد الشخص المعين اذا عاش امثالهُ وهو ميت قد خسر حياتهُ فاقول في جوابهِ ان المثل لا يكون مثلاً الاَّ اذا اشبه اخاهُ في كل شيء في الصورة والمادة والادراك والوجدان والارادة وغير ذلك من المشخصات فاذا متُّ انا على هذه الارض وعاش احد مثلي في كل شيء على ارض مثل هذه الارض في كل شيء لا اكون انا ميتاً في الحقيقة بل اكون عائشاً في ذلك الشخص كما اني في حياتي هذه قد تبدلت اجزائي بتمامها مراراً ولم اضع شخصي . ذلك لان اجزائي الجديدة متألفة تألف اجزائي القديمة فلم تضع من اجل المماثلة شخصيتي

ولنضرب لما تقدم مثلاً نشبّه الكون بشجرة متفرعة الاغصان الى ما لا يتناهى ونشبّه الاجرام باوراق هذه الشجرة فهذه الاوراق غير متناهية العدد ولكن صورها متناهية لا يمكن لما تقدم من الاسباب ان تتعدّى الى ما لا يتناهى واذا كان عددها غير متناهٍ كان عدد كل صورة منها غير متناهٍ فكانت الشجرة تحتوي على عدد من الاوراق غير متناهٍ كل ورقة منها ذات امثال لا تتناهى

وحيث ان ارضنا بمثابة ورقة من اوراق شجرة الكون فامثالها غير متناهية كما ان امثال غيرها كذلك

وليست الارضون المباينة لارضنا مباينة كلها لها من اول نشأتها الى آخر اجلها بل منها ما يباينها في اول ثانية من النشأة ومنها ما يباينها في ثاني ثانية وثالث ثانية وهكذا الى آخر الامد فالانسان الذي يعيش في هذه الارض تعيساً يجوز ان توافقهُ الاحوال ويعيش سعيداً في ارض تباين ارضنا قليلاً كما انهُ يعيش مثل عيشهِ ههنا تعيساً في الارضين المماثلة لارضنا في كل وقت . فهل بعد هذا حق للانسان ان يعاتب الطبيعة كلاَّ فانها تقسم السعادة والشقاء على البشر باتساوٍ . تجعل زيداً في ارضنا شقياً وتجعلهُ في غيرها سعيداً وتجعل عمراً في ارضنا سعيداً وتجعلهُ في غيرها شقياً

وليس الانسان يعائش ابدياً على نحو ما تقدم فقط بل هو عائش ابدياً على نحو آخر ايضاً لو يدري كما سنبينهُ

كثيراً ما اسأل نفسي لماذا ولدتُ في آخر سنة ١٩٠٨ م ولم اولد قبل مائة مليون سنة مثلاً فتجيبني نفسي لان والديَّ اللذين هما سبب وجودي لم يكونا حينئذٍ موجودين فاسأل لماذا لم يوجد والداي قبل وجودهما فتجيبني لانهما مثلي يحتاجان الى والدين ولم يكونا قبل فأسأل لماذا لم يكونا قبل وهكذا تجيبني واسألها الى اول انسان تقدم عن الحيوانية فاسأل لماذا لم يتولد اول انسان من الحيوان قبلما تولد واكرر السؤال وابعدهُ الى اول نشأة الحياة من الجماد فاسأل لماذا لم تنشأ الحياة من الجماد قبل ان نشأت فتجيبني ان الارض كانت في اول انفصالها عن الشمس جذوة نار فلم تكن حينئذٍ مستعدة لتولد الحياة واسأل لماذا لم تنفصل الارض عن الشمس قبلما انفصلت فتجيبني لان الشمس لم تكن حينئذٍ مستعدة لفصلها واسأل لماذا لم تستعد الشمس قبل ذلك لذلك فتجيبني لان اجزاءها لم تتحرك بحكم القوى التي فيها بحيث تجعلها مستعدة لفصل السيارات عنها واسأل لماذا لم يتم كل ذلك قبل حينهِ وقد كان الزمان الماضي لعدم تناهيهِ كافياً لاتيان كل عمل

هنا تسكت نفسي برهة ولا تجيبني ولكنها تجمع قواها وتجد مخرجاً من ضيق السؤال وتجيبني قائلة ان الزمان يدور . وذلك ان الفضاء ليس بُعْداً مجرداً فقط كما نتوهم بل هو قوة في نهاية البساطة تنشأ منها الابعاد وتنشأ عنها بتفاعل بعض اقسامها في بعض قوى ارقى منها وهذه تتفاعل وتتركب فتنشأ جواهر المادة وهذه ترتقي فتكون العناصر والعناصر تتركب وترتقي فيكون النبات والحيوان وهذا يرتقي فيكون الانسان ثم يرتقي الانسان فيتولد منهُ نوع اعلى منهُ ادراكاً واعظم اعمالاً لم يأتِ حينهُ بعد . ثم تأخذ سلسلة الارتقاء في التقهقر فيعود كل شيء الى ما نشأ عنهُ وفي النهاية تعود المادة الى القوة وتعود القوة الى الفضاء الذي هو ام الكائنات ثم تنشأ عنهُ كما نشأت اول مرة متقدمة في سلسلة الارتقاء الى ان تصل منتهاها وهكذا تمرد وتنشأ الى غير النهاية

وانت تدري ان الارض التي نشأنا عليها لم تكن هكذا جامدة من الازل كما انها لا تبقى هكذا جامدة الى الابد بل هي الآن جامدة ثم تعود الى ما هو ابسط من الغاز ثم تكون غازاً فسائلاً فجامداً وهكذا الى غير النهاية

وهي اذا تجددت تكون اما مخالفة لدورتها الاولى او موافقة . ولما كانت الصور التي تتألف عليها اجزاؤها متناهية وكان عدد الدورات غير متناهٍ فان نصيب كل صورة من

صورها عدد من الدورات غير متناهٍ . ولما كانت صورتها الحاضرة احدى تلك الصور فنصيب صورتنا هذه ايضاً عدد من الدورات غير متناهٍ وعليه فاننا نتجدد على الارض كما تجددت وماثلت في تجددها صورتها الحاضرة كما كنا دفعات غير متناهية

ولا يضرّ بخلودنا طول امد الموت فهو مهما طال وبلغ ربوات الملايين من السنين لا نحسّ به بل نحن لا نحسّ الاّ بحياتنا بعد ولادتنا الى مرتنا ولما كانت هذه غير متناهية لنا فائزون بحياة ابدية

وكم معترض عليّ قائلاً اذا كان الانسان لا يتذكر حياتهُ السالفة فاي فائدة لهُ منها فاجيب ان علمنا بها بطريق الاستدلال يغني عن العلم بطريق التذكر . واي انسان ناشدتكم الله يرضى ان يموت ابدياً فلا يلاقي حياتهُ المحبوبة لديهِ مرّة اخرى ولا اعزّتهُ الذين دنفهم وفي قلبهِ لوعة لو رجع يلاقيهم ويتمتع برؤيتهم

ولا ينتظرنّ الانسان ان يتذكر ايامهُ الاولى في الدورة السابقة لانهُ بموته ورجوع اجزائهِ الى عناصرها بالانحلال تمحي كل صورة للتذكر في دماغهِ فاذا عاد مولوداً عاد ودماغهُ عارٍ عن الصور التي كانت قد تولّدت فيهِ من طريق الحواس

هذا وفي القرآن العظيم دليل على صدق هذا العود فانهُ يقول « كما بدأكم تعودون » ويقول « كما بدأنا اول خلق نعيده » ولا يخفى ما في قولهِ اول خلق من العموم فانهُ يدل على ان هذا العود ناموس دوري يشمل كل الموجودات ولا يختص بالانسان وحدهُ

ونحن اذا لم نقل بالناموس الدوري هذا بل رجّحنا ان التغيرات سلسلة مستقيمة لا نهاية لطرفيها وقعنا في إشكال عظيم لا نهتدي الى حلهِ وذلك سؤالنا هل الحوادث الماضية كانت كلها في اوقاتها حوادث حالية ام لم يكن كلها اما القول انها لم تكن كلها في وقتها حوادث حالية فهو يقتضي ان يكون بعض الماضي ماضياً من دون ان يكون حالاً او مستقبلاً ولا يخفى ما فيهِ من الشطط واما القول انها كانت كلها في اوقاتها حوادث حالية فهو يستدعي انتهاءها لان سلسلتها عندما كان الكل حالاً ومستقبلاً تنقطع من جهة الماضي ولكننا اذا قلنا ان الحوادث تتعاقب دائرة على بدء اجبنا عن الاشكال السابق بان كل حادث يكون حالاً فماضياً ويكون الماضي مستقبلاً ويعود فيكون حالاً ويكون ماضياً وهكذا الى غير النهاية

بغداد جميل صدقي الزهاوي